[١٠٥] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن الذي بين يديك أنزله الله بالحق، أي: أن كل أخباره صدق وأحكامه عدل، ونزل مشتملًا علىٰ كل ما هو حق، ولم يقع فيه تبديل أو تغيير، ثم اعلم أيها الرسول أن الله ما أرسلك إلا مبشرًا من أطاع الله بالثواب، ومنذرًا من عصاه وكفر به بالعقاب.

[١٠٦] واعلم يانبي الله أيضًا أن هذا القرآن الذي بين يديك أنزله الله مفصلًا فيه الأوامر والنواهي، وفارقًا بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال، لكي تقرأه علىٰ الناس في تؤدة وتمهل لتستوعب معانيه، وأنزله الله عليك شيئًا فشيئًا علىٰ حسب الوقائع والأحوال وما تقتضيه الظروف والحكم.

[١٠٧] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: سواء آمنتم بهذا القرآن أم لم تؤمنوا به؛ فإن نفع ذلك وضرره راجع عليكم، وإن العلماء الذين أوتوا علم الكتب المنزلة علىٰ الرسل قبل القرآن كعبد الله بن سلام، وعرفوا حقيقة الوحي إذا قرئ عليهم القرآن خشعوا وسجدوا لله علىٰ الأرض؛ لأنهم علموا أنه من عند الله.

[١٠٨] ثم قال سبحانه: وهؤلاء الذين أوتوا علم الكتب السابقة إذا سمعوا القرآن قالوا: ننزه ربنا ونبرئه مما وصفه به الجاهلون، وإن وعد الله بنصر المؤمنين في الدنيا، والبعث بعد الموت ومحاسبة الناس علىٰ أعمالهم واقع لا محالة.

[١٠٩] ثم كرر جل وعلا مدحه لهؤلاء فقال: ويقعون علىٰ وجوههم ساجدين لله باكين من تأثرهم بالقرآن، ويزيدهم سماع القرآن ومواعظه خشوعًا وخضوعًا لعظمة الله وقدرته.

[١١٠] وقل يانبي الله للمشركين الذين أنكروا عليك الدعاء بقولك: ياالله يارحمن، قل لهم: ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فبأي واحد منهما دعوتم فإنكم تدعون ربًّا واحدًا، لأنهما اسمان لمسمىٰ واحد وهو الله، ولأن أسماء الله جامعة لكل المحاسن، ولا تجهر يامحمد بالقراءة في صلاتك فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن، ولا تُسِرَّ بها فلا يسمعك من يكون خلفك من أصحابك، وكن وسطًا بين الجهر والمخافتة.

[١١١] ختم جل وعلا السورة بأمر النبي ﷺ أن يقول: الحمد لله الذي له الكمال والثناء، والذي تنزّه عن الولد، ولم يكن له شريك يشاركه في الملك، ولم يتولَّ أحدًا من خلقه ليعاونه ويدفع عنه ضرًّا أو يجلب له نفعًا؛ فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إليه، وقد أنعم علينا بأن جعلنا نعبد ربًّا واحدًا؛ فله الحمد أولًا وآخرًا، وعظِّم يا نبي الله ربك تعظيمًا تامًّا بالثناء عليه وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له. وهذه الآية تسمىٰ آية العز.

سورة الكهف

سورة الكهف مكيّة وآياتها عشر ومائة آية، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[1]،

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق**»، وفي رواية: «**أضاء له من النور ما بين الجمعتين**»[2].

[١] بدأت السورة بالحمد والثناء والشكر لله الذي خصَّ برسالته عبده ونبيه محمدًا ﷺ الذي استوفىٰ مقام العبودية، وتفضل بأن أنزل عليه هذا الكتاب العظيم وهو القرآن، الذي ليس به ميل وانحراف عن الحق والعدل والصدق؛ بل جعله مستقيمًا في ألفاظه ومعانيه لا اعوجاج في شيء مما احتواه، وهو مهيمن علىٰ الكتب السماوية وحاوٍ لجميع ما فيها من المحاسن.

[٢] يخبر جل وعلا أنه جعل هذا القرآن مستقيمًا لا تعارض ولا اختلاف فيه أبدًا؛ بل هو محكم الآيات، وحاوٍ لمصالح الدنيا والآخرة، وأنه كتاب مستقيم معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، وقد أنزله الله لينذر العباد من عذابه الشديد يوم القيامة، ويبشر من آمن به وبرسله وكتبه ويعملون الأعمال الصالحة أن لهم أجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا في جنات النعيم.

[٣] ثم بين سبحانه أن هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل وهو الجنة، خالدين فيه أبد الآبدين، لا يزول عنهم ولا ينقضي أبدًا.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه ينذر بهذا القرآن: اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارىٰ الذين قالوا: عيسىٰ ابن الله، وبعض مشركي العرب: الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٠)، والحاكم في المستدرك (٣٣٩٢)، وصححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ
رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ
فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ
ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾
وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

[٥] ثم أخبر سبحانه أن أصحاب هذه المقولة الكفرية الشنيعة ليس لهم ولا لآبائهم الذين قلدوهم علم ولا يقين ولا دليل فيما قالوا؛ ثم ذمهم سبحانه ذمًّا شديدًا فقال: لقد عظُمَت وقبُحَت هذه الكلمة التي تجرؤوا علىٰ التفوه بها، وإن زعمهم هذا ضلال وكذب صريح.

[٦] بعد أن ذكر جل وعلا احتواء هذا الكتاب علىٰ البشارة للمؤمنين والنذارة للعصاة المجرمين، وما يستحقه كلٌّ منهما في الآخرة، قال لنبيه المتفاني في إبلاغ الدعوة المتألم الحزين علىٰ نفور المعاندين الكفرة: فلعلك يا نبي الله مهلك نفسك غمًّا وأسفًا وحزنًا علىٰ عدم إيمان المعرضين عن القرآن وعدم استجابتهم للذِّكر والهدىٰ، المحاربين للدعوة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

وهذه شهادة من الله أن نبيه ﷺ بذل كل جهده في تبليغ رسالة ربه، كما أن الله سبحانه يطلب منه الرفق بنفسه.

[٧] يخبر جل وعلا أن كل ما جُعل علىٰ الأرض من زينة ومغريات ونعم وأمتعة إنما جعله ابتلاءً واختبارًا؛ ليختار عباده الصالحون الحسن فيعملوه، وينساق المجرمون حسب شهواتهم وما تزين لهم أنفسهم ويزين لهم الشيطان، وبهذا يَبِينُ الخبيث من الطيب، ثم إن مصير ذلك كله للزوال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٥]، ثم يجزي سبحانه كلًا بما يستحق إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. ومن هذه الآية يتبين أن العبرة بحسن العمل لا بكثرته.

[٨] ثم أخبر سبحانه أنه بأمر منه سوف يجعل ما علىٰ الأرض من أموال وزروع عند انتهاء الدنيا خرابًا وترابًا لا نبات فيه ولا زينة.

[٩] بدأ جل وعلا بذكر قصة أصحاب الكهف الذين سُمِّيت السورة باسمهم، وهم شباب صالحون هربوا بإيمانهم خوفًا من أن يُفتنوا في دينهم، والخطاب في هذه الآية موجَّه للنبي ﷺ، والمقصود به أمته، والمعنىٰ: لا تظن يا نبي الله أن قصة أصحاب الكهف واللوح الذي كتبت فيه أسماء الفتية وبقاءهم أحياء هذا الزمن الطويل من الأمور المستغربة والعجيبة علىٰ قدرة الله، الفعّال لما يشاء جل في علاه؛ فهي عجب بالنسبة لأنها خارقة لما عُرف من حياة البشر، ولا حدود لقدرة الله، والذين سألوا عن أصحاب الكهف هم كفار مكة بطلب من يهود المدينة.

والكهف هو غار في جبل بعيد عن طريق الناس، هداهم الله إليه للاختفاء به، لتكون قصتهم عبرة للمعتبرين.

وقد جاء في تفسير (الرقيم) أقوال عدة أقربها ما ذكرنا: أنه لوح كان معهم مرقومة فيه أسماؤهم، أي: مكتوبة فيه أسماؤهم.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الفتية وهم أصحاب الكهف لمَّا دخلوا إلىٰ الكهف قالوا: ياربنا أعطنا من عندك رحمة تثبتنا بها علىٰ الإيمان، وتحفظنا من المجرمين ومن الشرور، ووفقنا ياربنا لطريق الخير والاستقامة؛ فاستجاب لهم جل وعلا وأخفاهم عن الظَّلمة وأراحَهم بهذه الرقدة من الهم وخوف المطاردة.

[١١] ثم أخبر جل وعلا أنه غطَّىٰ طبلة أذن كل واحد من هؤلاء الفتية لئلا يسمعون أي صوت؛ لأن النوم المعتاد يُسمع صاحبة الأصوات العالية فيستيقظ، أما هؤلاء فرحمهم الله فضرب علىٰ آذانهم، أي: جعلهم لا يسمعوا الأصوات مهما كان عالية؛ لذا بقوا هذه السنين الطويلة وهم رقود.

[١٢] ثم أخبر سبحانه أنه أيقظ هؤلاء الفتية من نومهم لِيُظهِرَ ويبيِّن للعالَمين أي الفريقين المختلفين أعرف بمدة لبثهم في الكهف.

[١٣] واعلم يانبي الله أن الله يقص عليك خبر هؤلاء الفتية بالصدق الذي لا كذب فيه، بأنهم فتيةٌ، أي: شباب صغار السن، قليل عددهم، آمنوا وصدّقوا بالله وبتوحيده، فزادهم الله هدىٰ وصلاحًا ويسَّر لهم العلم النافع والعمل الصالح.

[١٤] ثم بين جل شأنه أنه ثبتهم وقوىٰ عزائمهم لما قاموا للصدع بالحق والتوحيد قائلين للملك دقياس الذي ألزم قومه بعبادة الطواغيت: اعلم أيها الملك أن ربنا الذي نعبده ولا نشرك به شيئًا هو رب السماوات والأرض الذي خلق الخلق وأمرهم بتوحيده، فله الخلق والأمر، ونحن لن نعبد غيره ولن نشرك به شيئًا، فإنا إن فعلنا غير ذلك فقد ملنا ميلًا عظيمًا عن الحق، وقلنا قولًا باطلًا في غاية البطلان والبهتان والضلال.

[١٥] ثم قالوا لبعضهم البعض: إن هؤلاء قومنا الذين عبدوا غير الله وأشركوا به، هل عندهم دليل بيّن واضح يؤيد زعمهم؟ وعليهم أن يعلموا أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن يختلق علىٰ الله الأكاذيب بأن يشرك به ما ليس له به علم، وبأن يدعو غيره معه.

وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ
يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا
١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ
مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن
يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا
وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم
بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ
فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ
لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ
طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ
بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ
أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذٗا أَبَدٗا ٢٠

[١٦] ثم قال الفتية بعضهم لبعض: بما أنكم فارقتم قومكم في عبادتهم الأصنام، وخالفتموهم في دينهم؛ فابتعدوا عنهم فرارًا بدينكم، واذهبوا إلىٰ الكهف واجعلوه مقرًّا لكم تعبدون الله فيه، عسىٰ الله أن يهيئ لكم مخرجًا ويجعل لكم فرجًا، وييسر لكم ما يصلح شأنكم من طعام وشراب وأمن وأمان.

[١٧] ومن رحمة الله بأصحاب الكهف أن جعل الشمس تمر عن كهفهم صباحًا يمينًا ومساءً شمالًا ولا تقتحمه؛ إذ لو غشيتهم لتعفنت أجسامهم، وهم في مكان واسع من الغار فلا يتأذون من حرارة الشمس، ولا ينقطع عنهم الهواء والنسيم، واعلموا أن ما فعلناه وسخَّرناه لأصحاب الكهف إنما هو دليل علىٰ قدرة الله ورحمته وهدايته، فإن من يهديه الله فهو المهتدي؛ لأنه لا سبيل إلىٰ نيل الهداية إلا من الله، وأن من يُضله الله لن تجد من يتولىٰ أمره، ولا من يدبر شؤونه، ولا من يرشده إلىٰ الخير والفلاح؛ لأن الله حَكَمَ عليه بالضلال ولا رادَّ لحكمه جل وعلا.

[١٨] يخبر جل وعلا أن من ينظر إلىٰ أصحاب الكهف يظن أنهم أيقاظ، وهم في حقيقة الأمر نيام، ثم إن من رحمة الله بهم أن جعل أعينهم مغمضة وجعلهم يقلبون من جنب إلىٰ جنب ما بين وقت وآخر لئلا تأكل الأرض أجسامهم، وَتَقَلُّبُهُمْ إما بأيدي ملائكة مكلفين بذلك، أو بأمر من الله غير ذلك. قال أبو هريرة رضي الله عنه: (تقليبتان في السنة)، وقال ابن عباس رضي الله عنه: (قلبة واحدة في يوم عاشوراء).

والمعروف في المستشفيات أن الذين لا يستطيعوا أن يُقَلِّبُوا أنفسهم يجب أن يُقَلَّبُوا في الأسبوع مرة أو أكثر؛ لأن الجنب الملاصق للأرض أو للسرير إذا استمر التهب فاحمر ثم ينسلخ، أي: يذوب، وكلمة ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ تعني: التتابع؛ لذلك فالأحرىٰ أن التقليب ليس مرة أو مرتين في السنة؛ بل هو أكثر من ذلك، ثم إن هؤلاء الفتية كان معهم كلب مصاحب لهم، وقد أصابه ما أصابهم من النوم الطويل، وكان قد مدَّ ذراعيه خارج الغار لحراسته؛ فإذا أبصر أحد من الناس هؤلاء الفتية ونظر إليهم ولّىٰ هاربًا مما يصيبه من الرعب والخوف، وهذا من حماية الله وحفظه لهم.

[١٩] ثم أخبر جل شأنه أنه كما حفظ أهل الكهف كل هذه المدة الطويلة فإنه سبحانه أيقظهم من نومهم وهم علىٰ هيأتهم دون أن يظهر عليهم أي تغيير، ولما استيقظوا تساءلوا عن زمن نومهم فقال بعضهم: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وقال بعضهم: فوضوا الأمر لله فهو أعلم بالمدة التي بقيناها، ثم أرسلوا أحدهم وأعطوه بعض الدراهم المضروبة من الفضة ليأتي لهم بطعام من البلد التي هي أقرب بلد لغارهم، وطلبوا منه أن يتخير لهم الطعام الطيب الجيد الذي يسد جوعهم، وأمروه بالتخفي والتحرز أثناء الشراء حتىٰ لا يعرفه أحد من الناس لئلا يُكشف أمرهم.

والمتتبع لقصة أصحاب الكهف يرىٰ رحمة الله جل وعلا بهم كبيرة وكثيرة؛ حيث إنه حماهم بالرعب من أن يُكتشفوا، وحماهم من الأرض أن تأكل أجسامهم، وحماهم من أن تَتَعفَّن؛ إذ جعل الشمس تزاور عنهم في المساء وفي الصباح، وحماهم من الروائح الكريهة؛ إذ جعل الهواء والنسيم يدخل الغار ويخرج، وأبقىٰ أجسامهم كما هي من غير تغذية، ثم أكرمهم بأن جعلهم آية علىٰ قدرته، وعبرة للمعتبرين، واستجاب لطلبهم ودعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، ثم انتصر رسوخ الإيمان في صدورهم.

وقوله: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ قال بعض المفسرين: إن اللام هي نهاية النصف الأول من القرآن، والياء هي بداية النصف الثاني، وهذا بناء علىٰ عدد حروف القرآن. والله أعلم.

[٢٠] وأخبروا صاحبهم الذي أرسلوه ليشتري لهم الطعام بأن يكون علىٰ حذر، فإن الكفرة إذا أمسكوا بنا فسوف يقتلوننا وحينئذ سنكون شهداء، أو يلزموننا بالكفر وحينئذ لن نفوز بالجنة التي كانت مرادًا ومطلبًا لنا فنخسر الخسارة العظمىٰ، وهكذا إذا رسخ الإيمان في القلوب فإنه يصنع الأبطال.

وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧

[٢١] ثم إن الله أذن بانكشاف أمرهم والعثور عليهم؛ حيث كشفهم البائع من خلال النقود القديمة التي جاء بها المشتري، وهذا من حكمة الله حتىٰ يتيقن المنكرون للبعث من قومهم بأنّ الله قادر أن يبعث النّاس بعد موتهم، وأن وعده حق بأن الساعة قائمة ولا شكّ في ذلك، وبعد أن ظهر أمرهم أماتهم الله، ثم اختلفوا في قضية دفنهم أين يدفنونهم؟؛ فقال بعضهم: ابنوا علىٰ باب الكهف جدارًا فالله أعلم بأمرهم، ولكن تغلب القائلون: بأن يُبنىٰ عليهم مسجدًا.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وقد لعن من فعل ذلك؛ بل نهىٰ ﷺ عن البناء علىٰ القبور مطلقًا، ونهىٰ عن تجصيصها، والكتابة عليها، لأن ذلك من الغلو الذي قد يؤدي إلىٰ عبادة من فيها.

[٢٢] وبعد أن مرت عدة أعوام تنازع أهل الكتاب في عددهم، فقال اليهود: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت النصارىٰ: خمسة سادسهم كلبهم، وقال آخرون: سبعة ثامنهم كلبهم، فقل لهم يانبي الله: إن الله هو الذي يعلم عددهم، وما يعلم عددهم إلّا قليل من الناس من أهل العلم، قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنا من القليل الذين قال الله عنهم: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، هم سبعه ثامنهم كلبهم»، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن لا يجادل أهل الكتاب في عددهم إلا جدالًا ظاهرًا يسيرًا لا عمق فيه، وأن لا يسألهم عن أصحاب الكهف وعن عددهم؛ فإنهم يجهلون ذلك ولا علم عندهم بهم.

[٢٣] ولما سألت قريش النبي ﷺ عن أهل الكهف وعن الروح وعن الذي قال: أنىٰ يحيي الله هذه القرية، وهذا السؤال أحضره اليهود لقريش لإعجازه ﷺ، فقال لهم: سأخبركم بالجواب ولم يقل: إن شاء الله؛ فأنقطع الوحي عن النبي ﷺ فترة، ثم أتاه الجواب والعتاب، فقال الله له: ولا تقل يا نبي لشيء تريد فعله في المستقبل: إني سأفعله غدًا جازمًا بذلك.

[٢٤] ثم أرشده عز وجل إلىٰ الطريقة الصحيحة فيما إذا عزم علىٰ شيء يريد فعله في المستقبل بأن يرد ذلك إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ فيقول: إن شاء الله، ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يذكر الله إنْ نسي أو سها عن قول: إن شاء الله؛ فإنّ ذكر الله يذكّر العبد، ويوقظه من الغفلة، وبعد ذلك أمره جل وعلا أن يقول: عسىٰ ربي أن يدلّني ويبصّرني بأقرب الطرق الموصلة إليه، الدالة عليه.

[٢٥] يخبر جل وعلا أن أصحاب الكهف مكثوا في نومهم: ثلاث مائة سنة، وهذا بالحساب الشمسي، وهي بالحساب القمري ثلاثمائة وتسعًا، أي: مكثوا ثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

[٢٦] وقل يانبي الله: إن الله جل في علاه يعلم علىٰ وجه اليقين عدد ما لبث أهل الكهف فيه، وكيف لبثوا فيه، وهو سبحانه له علم ما غاب عن النّاس في السماوات والأرض، وله الكمال في البصر والسمع والإحاطة بكل شيء، وهو الذي بقدرته أبقاهم هذه السنين من غير أن تتغير أجسامهم وملابسهم، ثم أخبر سبحانه أنه ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله من ناصر، ولا يشاركه أحد في ملكه ولا في خلقه وأمره سبحانه جل في علاه.

[٢٧] واتل يا نبي الله ما أوحاه الله لك من القرآن لفهمه وامتثال أوامره، وهذا دليل علىٰ أن التلاوة نفسها عبادة وقربة إلىٰ الله تعالىٰ، واعلم أنه محفوظ عن التغيير أو التبديل أو الزيادة أو النقصان، وهذا لا يعني أنه لا يمكن للمضللين أن يفتروا أو يزيدوا وينقصوا؛ ولكن معناه: أنه محفوظ في الصدور وفي مصاحف كثيرة في كل بلدان العالم الإسلامي؛ فلو زاد أو نقص فيه أحد فإنه يُكتشف أمره ثم يُحرق كل جهده، ومهما بالغت وبذلت كل الجهد فلن تجد من دون الله ملتحدًا، أي: لن تجد من تلجأ إليه في أمورك كلها غير الله.

وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن
شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ
وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١ ۞ وَٱضۡرِبۡ
لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا
بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ
تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤

[٢٨] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ بالصبر علىٰ أصحابه من فقراء المؤمنين الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، ويدعونه ويتقربون إليه بكلِّ أنواع الطاعات صباحًا ومساءً، يبتغون بذلك وجه الله والدار الآخرة ونعيمها، ثم أمره أن لا يصرف نظره عن هؤلاء المؤمنين الصادقين إلىٰ غيرهم من أهل الكفر والأعداء الذين كان يبالغ في دعوتهم طمعًا في إسلامهم، كما أمره أن لا يطيع أولئك الغافلين عن ذكر الله وطاعته، لأن حياتهم كلها ضياع في ضياع. والخطاب في هذه الآية موجه للنبي ﷺ، ولكن المقصود به كل من يدعو إلىٰ الهدىٰ من الدعاة من أمته، وفي هذه الآية الحث علىٰ مصاحبة الصالحين ومشاركتهم في العبادة من قيام وصيام وتلاوة؛ فإن الصاحب ساحب؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فَلا تَصحَبْ أَخا الجَهلِ ... وَإِيّاكَ وَإِيّاهُ
فَكَم مِن جاهِلٍ أَردىٰ ... حَليمًا حينَ آخاهُ
يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ ... إِذا ما المَرءُ ماشاهُ

وقوله: (أردىٰ حليمًا)، أي: أهلكه معه.

[٢٩] وقل لهم يانبي الله: قد جئتكم بالحق الواضح البين من ربكم الذي لا لبس فيه ولا خفاء، وبينتُ لكم سبيل الخير ورغبتكم فيه، وبينت لكم سبيل الشر وحذّرتكم منه، ولم يبق لكم إلّا سلوك أحد الطريقين، الهدىٰ أو الضلال، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن اختار الكفر علىٰ الإيمان، ثم أخبرهم يانبي الله أنّا هيئنا للظالمين الذين تجاوزا حدّهم، وآثروا الكفر علىٰ الإيمان؛ نارًا شديدة يُحيط بها سور عظيم لا يستطيعون الخلاص منها، وإن اشتد عليهم العطش فاستغاثوا طالبين الماء ليرتووا؛ فإنّا سنأتيهم بماء مغلي شديد الحرارة يشوي وجوههم إذا اقترب منها، فيُسقون هذا الماء الذي يُقطع أمعاءهم، فبئس ذلك الشراب الذي يظنون فيه تخفيفًا للعذاب فإذا به يزيدهم عذابًا إلىٰ عذابهم، وساءت النار وساء حال أهلها.

[٣٠] يخبر جل وعلا أنه الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم من ربهم، وإنه سبحانه لا يضيع هذه الأعمال التي عملوها وكسبوها في حياتهم الدنيا.

ومن تتبع آيات القرآن الكريم يجد أن الله جل في علاه دائمًا يُتبع ذكر الإيمان بالعمل، وهذا فيه رد وذم للذين لا يعملون ويفرطون في الفروض وغيرها، ويقولون: (ربك رب قلوب)، يعني: إنه إنما يحاسب علىٰ العقيدة فقط، وكثير ممن استولت عليهم الشهوات يقولون هذا، ولا شكّ أن ما وقر في القلب إذا لم يصدّقه العمل فإنّه حينئذ لا يكون صدقًا ولا ينفع صاحبه.

[٣١] ثم أخبر سبحانه أن أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح لهم جنات كثيرة الأشجار يقيمون فيها إقامة دائمة لا يتحولون عنها، من حُسن هذه الجنات وبهائها أنها تجري من تحتها الأنهار وتنساب من تحت المنازل والأشجار والغرف، وأهلها يُزيّنون فيها بلبس أساور الذهب، ويلبسون أيضًا ثيابًا خضراء جميلة نسجت من رقيق الحرير وغليظه، وهم فيها متكؤون علىٰ سرر مزينة بستائر جميلة، نِعم الثواب ما هم فيه من النعيم الدائم الذي لا ينقطع، وحسُنت هذه الجنة مرتفقًا يرتفقون فيها ويتمتعون بحليّها وثيابها وطعامها وشرابها وحورها، ورضوان الله فيها نسأل الله الكريم من فضله.

[٣٢] واضرب لهم يانبي الله هذا المثل، وهو لرجلين أحدهما: منافق جاحد لنعمة الله، والآخر مؤمن، فأما المنافق فكان له حديقتان عظيمتان من أعناب محفوفة بالنخل في شكل بديع يسرّ الناظرين، ومع ذلك بَيْنَ تلك الأشجار زروع كثيرة، وخيرات وفيرة.

[٣٣] وأخبر سبحانه أن هاتين الحديقتين أثمرتا ثمرها ضعْفين، وآتت أكلها مرتين، ولم تنقصا من ذلك أدنىٰ شيء، ومع ذلك كان بيْن تلك الحديقتين نهر جارٍ يسقيهما بيسر واستمرار دون انقطاع.

[٣٤] وكان لصاحب الحديقتين ثمر كثير وخير وفير، فقال مزهوًّا لصاحبه المؤمن: أنا خير وأفضل منك لأني أكثر منك مالًا وأعز أنصارًا، فعندي من العبيد والخدم والأقارب ما ليس عندك.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَٰحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ
بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

[٣٥] ثم أخبر سبحانه أن هذا الظالم لنفسه دخل حديقته متكبرًا متجاوزًا كل حدوده، وقال لصاحبه المؤمن بزهوٍّ واطمئنان إلىٰ الدنيا: ما أظن ياصاحبي أن تفنىٰ هذه الحديقة الغنَّاء أبدًا.

[٣٦] ثم قال متماديًا في عتوّه وإنكاره للبعث: ولا أعتقد أن القيامة ستقوم، ولئن افترضنا قيام القيامة، ورجعت إلىٰ ربي، فإنّه مما لا شكّ فيه أن ربي سيعطيني خيرًا من هاتين الحديقتين، وذلك لكرامتي وعلوّ منزلتي عنده.

[٣٧] فقال له صاحبه المؤمن واعظًا ومذكرًا: أكفرت بالله الذي جعل أصْل خلقتك من تراب، ثم من منيّ، ثم صيرك الله إنسانًا معتدل الخلقة؟ واتهمه بالكفر لأن صاحب الجنتين قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ﴾، ولهذا قال أهل العلم: الشك في الله أو في قدرته كفر.

[٣٨] ثم قال صاحبه المؤمن مقرًّا ومعترفًا بألوهية الله وربوبيته: وأما أنَا فأقر بربوبية الله جل في علاه؛ فهو الذي رباني وربّىٰ جميع العالمين بنعمه، فهو معبودي لا أشرك به شيئًا، ولا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

[٣٩] ثم قال له صاحبه المؤمن ناصحًا له: هلّا إذْ دخلت حديقتَك فأعجبتك قلتَ: ما شاء الله لا قوة إلا بالله! فتُرجع الفضل لله، بدلًا من أن تعيرني بقلة المال والولد.

[٤٠] ثم قال صاحبه داعيًا عليه بسبب كفره وجحوده: فعسىٰ ربي أن يرزقني بخير من حديقتك، ويدمّر حديقتك بسبب كفرك وتكبرك وعنادك؛ بأن يبعث عليها من السماء ما يبيدها ويمحقُها، فتُصبح حديقتك أرضًا ملساء لا زرع فيها، ولا تنبت فيها شجرة.

[٤١] واستمر في دعائه عليه فقال أيضًا: وأسأل الله أن تجف أنهار حديقتك، ويغور ماؤها في الأرض فلا تستطيع إخراجه لسقيا الحديقة، ولا تستطيع أن تنتفع به.

[٤٢] وحصل ما قاله المؤمن، فأرسل الله علىٰ حديقته عذابًا أبادها وأهلك ثمرها، فصار الكافر يقلب كفّيه حسرة وندامة علىٰ ما أنفق فيها من نفقات دنيوية من جهد ومال ونحوه، والحديقة خاوية ساقطة علىٰ دعائمها في منظر يُصيب صاحبه بكامل الحسرة والندم، فقال حينها - وقد فات وقت الندم -: ياليتني لم أُشرك بربي أحدًا.

[٤٣] وحين هلكت حديقته ما كان له من أنصار ولا أعوان يمنعون عنه عذاب الله، ولم ينفعه افتخاره بكثرة المال والولد، ولا كان يستطيع حين نزول العذاب أن ينتصر لنفسه، ولا أن تنفعه قوته.

[٤٤] وفي ذلك المقام وحين الشدائد تكون القوة والملك والسلطان والنصرة لله جل جلاله، هو سبحانه خير من يثيب علىٰ التوحيد والعمل الصالح، وهو سبحانه خير من يجزي المحسن بحسن العاقبة، وأقدر علىٰ إنزال الضرر بالعصاة.

[٤٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يبين لقومه أن هذه الحياة الدنيا تشبه في زهرتها وبهجتها، ثم سرعة ذبولها وزوالها الأرض الطيبة إذا نزل عليها الغيث فأنبتت وأزهرت وصار يُعجب الناظرين إليه، ثم بعد زمن يسير يذبل ويبس ويتحول إلىٰ غثاء تنثره الرياح في كل اتجاه، وهكذا الإنسان يبدأ شابًّا نشيطًا يافعًا يقارع أقرانه ويتفوق عليهم وربما استكبر وتجبر وما هي إلّا أيام يسيرة؛ فإذا به يصاب بمرض أو تلف مال أو كبر سن فيذهب الشباب والسرور والغرور، ثم تأتيه المنية فلا يكون معه في قبره إلّا صالح عمله أو سيئة، عندها يبدأ الندم ولات حين مندم، واعلموا أن الله علىٰ كل شيء قدير، له القدرة العظيمة المطلقة التي لا تدركها أي قدرة.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى
الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ۖ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ
بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

[٤٦] واعلموا أن الأموال والأولاد جعلها جل وعلا من زينة الحياة الدنيا الفانية، ولكن سرعان ما تزول هذه الأموال ويموت الأولاد؛ بل إن كل ما يفتخرون به يزول، ولا يبقىٰ مع الإنسان إلّا أعمال الخير والبر والذكر وجميع العبادات، وهي أفضل أجرًا وثوابًا عند الله من المال والبنين؛ لأن هذه الأعمال هي التي تبقىٰ معه ولا تفارقه حتىٰ تُدخِلَه الجنة، ومن أعمال البر الذرية الصالحة التي هي من كسب المؤمن؛ فإنها قد ترفع المؤمن إلىٰ درجة أعلىٰ مما يستحقه من سائر عمله.

[٤٧] وذكرهم يانبي الله يوم نزيل الجبال عن أماكنها فتكون كالعهن المنفوش ثم تضمحلُّ وتتلاشىٰ فتكون هباء منثورًا، وحينها ترىٰ الأرض ظاهرة لا شيء عليها يسترها مما كان عليها من المخلوقات، وحينها يجمع الله الأولين والآخرين للعرض والحساب والجزاء فلا يُترك أحد إلا حُشِر إلىٰ هناك.

[٤٨] ووقفوا يوم العرض والجزاء صفوفًا لا يخفىٰ منهم أحد، أذلاء خاضعين، ثم قيل لهم: لقد جئتم ووقفتم للعرض والجزاء كما خُلِقتم أول مرة حفاة عراة غرلًا لا مال معكم ولا ولد ينفعكم، ثم خُوطب من يُنكر البعث فقيل لهم تقريعًا وتوبيخًا: إنكم زعمتم أن لن تُبعَثوا، وها أنتم قد رأيتموه وعاينتموه.

[٤٩] وحينها تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة وأحصتها علىٰ كل واحد؛ فمن الناس من يأخذ كتابه باليمين، ومنهم من يأخذه بالشمال، ويومها: ترىٰ المجرمين العصاة خائفين وجلين يدعون علىٰ أنفسهم بالويل والثبور، فيقولون في حسرة وندامة: يالهلاكنا ما لهذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وسجلها علينا، ووجدوا فيه كل ما عملوا حاضرًا أمامهم لا يستطيعون إنكاره، ولا يظلم ربك أحدًا فيعاقبه بغير ذنب اقترفه، ولا خطيئة اكتسبها؛ بل يُجازىٰ كل امرئ بما قدمت يداه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

[٥٠] واذكر لهم يا نبي الله حين أمرنا الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحيةٍ وإكرامٍ وتعظيمٍ لا سجود عبادة، فسجدوا إلا إبليس الذي كان من الجنِّ فرفض وأبىٰ واستكبر وعاند وخرج عن طاعة ربه، وتبينت عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تجعلونه وذريته من الشياطين أعوانًا لكم فتطيعونهم وتستبدلونهم بطاعة الرحمن؟! فقبحًا لكم أيها الظالمون الذين تجاوزتم حدود الله، واستبدلتم طاعة الله بطاعة الشيطان.

[٥١] ثم قال جل وعلا: ما أشهدت هؤلاء الشياطين خلق السماوات والأرض ولا أشركتهم ولا شاورتهم في ذلك، ولا استعنت بهم علىٰ خلقهما، فكيف تجعلونهم شركاء تطيعونهم وتوالونهم، وما ينبغي ولا يليق بالله أن يتخذهم أعوانًا أو أن يجعل لهم قسطًا من التدبير، فهم الملعونون المطرودون من رحمة الله.

[٥٢] وذكرهم يانبي الله يوم يقول الله جل وعلا لهؤلاء المشركين موبخًا لهم: نادوا هؤلاء الشركاء الذين زعمتم أنهم شركاء لي في عبادتي؛ ليشفعوا لكم أو ينصروكم ويغيثوكم من العذاب؛ فيقوم المشركون بندائهم ولكن لا يستجيبون لهم، ثم بين سبحانه أنه جعل بين المشركين وشركائهم فضاءً بعيدًا.

[٥٣] ثم قال سبحانه: لقد عاين المشركون نار جهنم، وأيقنوا أنهم داخلون فيها ومخالطون لهبها، ولم يجدوا حينها مكانًا ينصرفون إليه، أو يلتجؤون ويحتمون به، فلم يستطيعوا عنها فرارًا، نسأل الله السلامة والعافية.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ
مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا
أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا
لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ
مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا
لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

[٥٤] يقول المولىٰ عز وجل: ولقد بيّنا ووضحنا في هذا القرآن للنّاس من كل طريق موصل للعلم والسعادة والخير في الدارين، وكان الإنسان أكثر المخلوقات مجادلة ومنازعة.

[٥٥] ثم قال سبحانه: وما منع الكفار أن يؤمنوا بالله وبالرسالة، وأن يستغفروا ربهم من الذنوب والمعاصي؛ إلّا الإصرار علىٰ اتباع ما كان عليه آباؤهم وأسلافهم والعناد والعداء لأي شيء جديد، مع أن الرسول الصادق الناصح الأمين أتاهم بالهدىٰ من عند الله وهو القرآن العظيم، ولكن منعهم التكبر والغرور من اتباعه، وتحديهم أن تأتيهم سنّة الله وعادته في الأمم الضالة السابقة وهي الاستئصال، أو أن يأتيهم عذاب الآخرة وهو أشد وأنكىٰ، أو الانتصار عليهم كما وقع في غزوة بدر.

[٥٦] وضّح جل وعلا مهمة الرسل وهي البشارة للمحسنين والنذارة للعصاة الكافرين، ثم أضاف جل وعلا أن الكفار مولعون بالباطل لذلك جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولم يقفوا عند هذا؛ بل اتخذوا آيات الله هزوا فجعلوا يتندرون ويسخرون بالآيات القرآنية.

[٥٧] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أظلم ممن ذُكِّر ووُعظ بآيات الله ثم صدّ عنها وعن الإيمان بالله؛ بل سخر بها وبالمؤمنين؛ ونسي ما قدمت يداه من الشرك والأفعال القبيحة ولم يرجع أو يتوب عنها؛ لذلك كانت العقوبة هي حرمانه من الانتفاع بالنور والهدىٰ، والطمس علىٰ قلبه بغطاء، وكذلك الطمس علىٰ أذنيه، ومهما دعوتهم إلىٰ الإيمان فلن يهتدوا إليه أبدًا؛ بل يستمروا علىٰ ما اختاروه لأنفسهم وهو الضلال السرمدي حتىٰ يموتوا ثم إلىٰ النار يؤولون، والعياذ بالله من سوء الختام الذي اختاروه لأنفسهم.

[٥٨] ثم بين سبحانه أنه كثير المغفرة لعباده، واسع الرحمة بهم، فرحمته وسعت كل شيء، ومن ذلك أنه لم يعاجل هؤلاء المعرضين بالعقوبة؛ بل أجّلهم وأخّرهم ليومهم المعلوم، وأجلهم المحتوم.

[٥٩] ثم أخبر سبحانه أن تلك القرىٰ من قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وأمثالهم أهلكهم بظلمهم لأنفسهم بالكفر والعناد، وجعل سبحانه لهلاك كل أمة وقتا محددًا وميعادًا معينًا، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

[٦٠] بدأ المولىٰ عز وجل بقصة موسىٰ كليم الرحمن وأحد أولي العزم من الرسل، مع الرجل الصالح الخضر عليه السلام، فقال جل وعلا لنبيه ﷺ: واذكر يانبي الله يوم أن قال موسىٰ لفتاه يوشع: لا أزال أسير حتىٰ أصل ملتقىٰ البحرين بحثًا عن الرجل الصالح وهو الخضر عليه السلام، وملتقىٰ البحرين قيل: إنه التقاء البحر الأبيض المتوسط بالمحيط عند طنجة، وقيل: إنه ملتقىٰ خليج السويس بخليج العقبة، ثم قال: وسوف أواصل السير بحثًا عنه ولو أدىٰ ذلك إلىٰ أن أمضي حقبًا، أي: أسير زمنًا طويلًا. والحقبة: قيل: عشر سنوات، وقيل: خمسة وعشرين سنة، وقيل: أكثر.

[٦١] فلما وصل موسىٰ وفتاه إلىٰ المجمع المذكور استراحا فترة من الزمن عند صخرة كانت علىٰ الشاطئ، وكان معهما حوت مملح معد للأكل في مكتل، ثم علىٰ مرأىٰ من الفتىٰ أعاد الله الحياة للحوت، فقفز من المكتل إلىٰ الساحل، ثم دخل البحر، واتخذ له طريقًا مفتوحًا فارغًا من الماء، أي: جعل فيه ثقبًا يشبه السرداب.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن
تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ
صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

[٦٢] وبعد أن سارا مواصلين بحثهما عن الرجل الصالح الخضر قال موسىٰ لمرافقه: آتنا غداءنا: أي: آتنا بالحوت لكي نتغدىٰ عليه لقد لقينا في سفرنا هذا معاناة وتعبًا شديدًا. وطعام الغداء هو الذي يكون في أول النهار.

[٦٣] فقال مرافق موسىٰ: أَتَذْكُرُ حين أوينا إلىٰ تلك الصخرة التي استرحنا عندها التي كانت عند مجمع البحرين؛ فإني نسيت أن أذكر لك ما حدث للحوت، ثم قال معتذرًا: وما أنساني أن أذكر ذلك إلا الشيطان؛ حيث اشغلني بوساوسه أن أذكر لك أمره وخبره العجيب؛ حيث إن الحوت عادت له الحياة وقفز من المكتل وذهب من الساحل إلىٰ البحر وسار في البحر حتىٰ شق له فيه طريقًا.

قال الشيخ الناصري: وهكذا قد ينسىٰ الإنسان أوضح الواضحات وهي أمام عينيه.

[٦٤] فقال موسىٰ: وهذا الذي كنّا نريد وهو عين ما نطلب؛ حيث أعلم الله موسىٰ أو ألهمه أنه متىٰ فقد الحوت فذلك علامة علىٰ مكان التقائه بالعبد الصالح الخضر؛ فلذلك رجع موسىٰ ومرافقه يقصان آثار أقدامهما إلىٰ المكان الذي نسيا فيه الحوت، حتىٰ وصلا إلىٰ الصخرة.

[٦٥] فلما وصلا إلىٰ الصخرة وجدا عندها العبد الصالح الخضر عليه وعلىٰ موسىٰ السلام الذي كانا يبحثان عنه، وقد أخبر سبحانه أنه أعطىٰ هذا العبد الصالح رحمه خاصة من عنده، وهذه الرحمة قيل: هي النبوة، وأيضًا علمه شيئًا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

[٦٦] وبعد أن تعارفا عَرَضَ موسىٰ علىٰ الخضر مطلوبه؛ فقال له موسىٰ: هل تأذن لي أن أصاحبك لأتعلم منك العلم الذي علمك الله؛ لعلّي أسترشد وأنتفع به، قال أهل العلم: وهذا دليل علىٰ استحسان أن يأخذ الفاضل مما عند المفضول من الفوائد العلمية التي لم تكن عنده.

[٦٧] وبعد أن عرف الخضر موسىٰ وعرف أنه رسول الله لبني إسرائيل فقال: ياموسىٰ إنك لن تستطيع مرافقتي ولن تصبر علىٰ صحبتي؛ لأن علمك الشرعي لا يجعلك تستطيع الصبر علىٰ ما ستراه من أفعالي.

[٦٨] ثم قال الخضر معتذرًا عن موسىٰ: وكيف تصبر علىٰ ما لم تحط به خبرًا مما يخالف الأحكام الشرعية التي لديك؛ حيث إن ظاهرها منكر وباطنها غير ذلك، وعلمك الشرعي لا يجعلك تصبر علىٰ ما ستراه من أفعالي.

[٦٩] فأصر موسىٰ علىٰ طلب العلم وقال للخضر: ستجدني إن شاء الله صابرًا منفذًا تعليماتك، ولن أعصيك فيما تأمرني به.

[٧٠] فقال الخضر لموسىٰ: إن أردت اتباعي فلا تسألني عن شيء مما تراه مخالفًا حتىٰ أوضح لك ذلك ومبرراته.

[٧١] وبعد أن قبل موسىٰ بمطلب الخضر انطلقا يمشيان علىٰ الساحل فمرت سفينة فسمح أصحابها بإركابهم بدون أجرة تفضلًا وكرمًا من أصحاب السفينة، قيل: لأنهما عرفاه وقالوا عنه: الرجل المبارك، ولما قربت السفينة من المدينة قام الخضر وأحدث في جانب السفينة خرقًا بعيدًا عن الماء ولكنه شوه منظر السفينة؛ فهال موسىٰ هذا الأمر وخاف أن يتسبب هذا الخرق في غرق السفينة بسبب دخول الماء عليها، وقال منكرًا هذا الفعل: قوم حملونا كرمًا منهم بلا مقابل، ومع ذلك تقوم بهذا الفعل؛ لتكون سببًا في غرق أهلها، لقد جئت منكرًا كبيرًا وأمرًا عظيمًا.

[٧٢] قال له الخضر منكرًا عليه: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع أن تصبر علىٰ صحبتي؟! وكانت الأولىٰ من موسىٰ نسيانًا.

[٧٣] فقال له موسىٰ: لا تشق علي في صحبتك فما كان هذا مني إلا نسيانًا لشرطك، فلا تكلفني المشقة وعاملني باليُسر واللّين لا بالعسر والشدة.

[٧٤] فنزل موسىٰ والخضر من السفينة وانطلقا يمشيان فلقيا غلامًا صغيرًا يلعب مع الصبيان؛ فأمسك الخضر برأسه فاقتلعه وقتله، فاشتدَّ غضب موسىٰ عليه السلام حين رأىٰ ذلك، وقال منكرًا عليه: كيف تقتل هذه النفس البريئة الطاهرة التي لم تبلغ الحلم؟ بغير ذنب اقترفته ولا سوء عملته؟!! لقد ارتكبت أمرًا منكرًا في غاية النكارة.

* قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ
أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا
الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ
رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ
وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن
يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾
وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

[٧٥] فقال له الخضر منكرًا عليه ومعاتبًا إيّاه: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع أن تصبر علىٰ صحبتي؟! وزاد في قوله كلمة: ﴿لَّكَ﴾ لشدة إقناع موسىٰ بأنه لا يستطيع الصبر.

[٧٦] فقال له موسىٰ عليه السلام متأسفًا معتذرًا: إن بدر مني سؤال لك مرة أخرىٰ بعد هذه المرة، فسيكون ذلك نهاية مصاحبتي لك، فلقد أعذرت؛ حيث خالفتُ شرطك ثلاثًا.

[٧٧] ثم انطلق موسىٰ والخضر عليهما السلام يمشيان حتىٰ دخلا قرية من القرىٰ فطلبا من أهلها أن يطعماهم علىٰ سبيل الضيافة؛ فأبىٰ أهل القرية ذلك ورفضوا إطعامهم، فوجدا جدارًا مائلًا يوشك أن يسقط؛ فعدَّله الخضر وأقامه وأصلحه، فقال له موسىٰ: هلَّا طلبت لإصلاحك الجدار أجرة نصرفها في تحصيل طعامنا؛ حيث إن أهل هذه القرية رفضوا ضيافتنا!

[٧٨] فقال له الخضر حينها: ياموسىٰ هذا أوان فراقك إياي، فإنك قد شرطت ذلك علىٰ نفسك، فلم يبق الآن موضع للعذر، ولا مجال للصحبة، وسأبدأ الآن بإخبارك بما أنكرته عليَّ من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.

[٧٩] ثم قال الخضر لموسىٰ: أما السفينة التي خرقتُها فكانت لأناس مساكين يعملون عليها في البحر ويتكسَّبون من ورائها رزقهم، وسبب خرقي لها: أن أمامهم ملك ظالم إذا مرّت عليه سفينة صالحة فإنه يأخذها لنفسه ظلمًا وغصبًا، وإذا كانت معيبة فإنه يتركها، فأردت أن أعيبها بذلك الخرق لتَسْلَم لأصحابها.

[٨٠] ثم قال الخضر أيضًا: وأما الغلام الذي قتلتُه فقد كان له أبوان مؤمنان، ولم يكن هو صالح، ولو استمر علىٰ قيد الحياة لأثّر عليهما غلبةُ حبِّه مما يحملهما علىٰ الكفر أو الطغيان؛ لأجل محبتهما إياه، أو لشدّة حاجتهما إلىٰ رعايته لهما.

[٨١] ثم قال الخضر أيضًا: فأردنا أن يُخلف الله عليهما ويرزقهما ولدًا صالحًا خيرًا من هذا الولد؛ يكون دينًا وخيرًا وصالحًا، ورحمة لوالديه.

[٨٢] ثم قال الخضر: وأما الجدار المائل الذي أصلحناه فقد كان لغلامين يتيمين من أهل ذلك البلد، وكان تحت هذا الجدار كنز عظيم لهما، ولو سقط الجدار لبان الكنز، وربما أخذه غيرهما فلم ينتفعا به، وكان لهما والدان صالحان، فأراد الله جل وعلا أن يكبر هذان الغلامان ويشتد عودهما ثم يستخرجا كنزهما، رحمة من ربك بهما، وكرامة لوالدهما الصالح، وما فعلت جميع ما سبق عن اجتهادي ورأيي ومن تلقاء نفسي؛ بل كان ذلك بأمر ربي وتعليمه، واعلم أن ذلك المذكور هو تفسير ما ضاق صبرك عنه، ولم تستطع السكوت عليه، وبادرت في السؤال والإنكار عليّ.

قال العلماء: أصح الأقوال في الخضر أنه وليّ أطلعه الله علىٰ بعض العلوم الغيبية التي لا يعلمها إلا الله؛ مع أن قوله لموسىٰ: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، يؤيد القائلين بأنه نبي.

وقال بعضهم: ومما يدل علىٰ أنه وليّ أن النبي تكون له أمة وجماعة، والخضر ليس له أمة معروفة أو جماعة معروفة، فهو سائح في الأرض؛ وسواء كان وليًّا أو نبيًّا فلا شك أن موسىٰ أفضل منه وأغزر علمًا من الخضر في ما يخص الرسالة، ومع ذلك لمّا علم موسىٰ أن عنده علمًا لا يعرفه ذهب إليه وتكبد في ذلك المشاق؛ لأن العلم من أنفس المطلوبات، وأنه تشد إليه الرحال، ويبذل فيه الغالي والنفيس.

[٨٣] ثم أخبر سبحانه أن المشركين سألوا النبي ﷺ عن قصة الملك الصالح (ذي القرنين)، فأمره أن يقول لهم: سوف أقرأ عليكم شيئًا من أحواله ما يكون فيه ذكرىٰ وموعظة وعبرة لكم.

وذو القرنين الأكبر اليوناني اسمه: «اسكندر بن فيلقوس»، قال مجاهد: (ملك الأرض كلها)، وقصده الأرض المعروفة آن ذاك، وقال ابن كثير: (إنه ما كان نبيًّا وكان مؤمنًا صالحًا، وهو غير ذي القرنين: اسكندر الرومي الذي كان متأخرًا عنه بقرون كثيرة، وكان كافرًا ظالمًا اجتاح الشام وأرض فارس، وقتل خلقًا كثيرًا.

أما ذو القرنين الأول وهو: (اسكندر بن فيلقوس) فقد استعمل الأسباب التي منحها الله له واتبعها بسبب منه، وهي العزيمة والهمة العالية التي أراد بها تطويع العباد لله.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ
أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن
تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى
بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ
بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ
قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

[٨٤] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ فقال: لقد مكنا لذي القرنين من النفوذ في الأرض، وأعطيناه من كل شيء يحتاج إليه في فتح الأرض ونشر العدل والخير فيها.

[٨٥] ثم بين جل وعلا أن ذو القرنين أخذ بما هيأنا له من الأسباب بكل جدٍّ واجتهاد وعزيمة.

[٨٦] فلمّا وصل ذو القرنين مغرب الشمس، أي: مغربها عن الأرض المعروفة في ذلك الزمان؛ وجدها تغرب في عين حمئة، أي: حارّة ذات طين أسود، ووجد عندها أناسًا كافرين؛ فخيّره جل وعلا بن أمرين: إما أن تعذبهم بالقتل وغيره بسبب كفرهم إذا لم يؤمنوا بالله عز وجل ويقرّوا بالتوحيد، وإما أن تحسن إليهم بتعليمهم الهدىٰ وتبصّرهم بالرشاد بعد أن تتغلب عليهم؛ فكان أن أحْسن للصالحين وأثابهم وشجعهم، وأذل العصاة المجرمين وعاقبهم.

[٨٧] فأجابهم ذو القرنين بأن جعل الناس قسمين: قسم ظلم نفسه بالكفر والمعاصي، وقسم آمن بالله وعمل صالحًا، وأجاب عن القسم الأول فقال: أما من ظلم نفسه بالكفر والإصرار علىٰ الشرك فسوف نعذبه في هذه الحياة الدنيا بقتله إن أصر علىٰ الكفر، ثم يُرجَع إلىٰ ربه فيُعذبه عذابًا فظيعًا أليمًا.

[٨٨] ثم أجاب عن القسم الثاني فقال: وأما من آمن ووحَّد وصدَّق، وأتبع ذلك بالعمل الصالح؛ فهذا جزاؤه الجنة والحالة الحسنة عند الله سبحانه وتعالىٰ، ونحن سنحسن إليه، وسنقول له القول الحسن اللَّيِّن.

[٨٩] ثم عاد ذو القرنين راجعًا إلىٰ المشرق، متبعًا الأسباب التي أعطاه الله إيّاها.

[٩٠] ثم ذهب ذو القرنين إلىٰ مطلع الشمس، أي: الموضع الذي تطلع منه الشمس من جهة المشرق، ثم أوغل فيه حتىٰ وصل إلىٰ أناس ليس لهم ستر يحجب حرارة الشمس عنهم، ولا شجر يستظلون به؛ بسبب جهلهم وحياتهم البدائية، ومع ذلك فقد آمنوا به وبالإيمان الذي حمله لهم.

[٩١] ثم بين جل وعلا أن ما ذكره عن ذي القرنين فإنه مطلع عليه، وأنه سبحانه وتعالىٰ قد أحاط علمًا كاملًا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة حيثما توجه وسار.

[٩٢] ثم سار ذو القرنين مواصلًا طريقه بالأسباب التي يسّرناها له وعلمناه إياها.

[٩٣] ثم أخبر سبحانه أن ذو القرنين واصل سيره حتىٰ وصل بين السدين، وهما الجبلان الحاجزان لمَا وراءهما، وكانا معروفين في ذلك الزمان؛ فوجد من دون السدين أناسًا لا يعرفون كلام غيرهم بسبب عجمة ألسنتهم، ولكن الله أعطىٰ ذا القرنين القدرة علىٰ فهمهم ومحاورتهم.

[٩٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء القوم اشتكوا إلىٰ ذي القرنين؛ فقالوا: ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج -وهما أمتان عظيمتان من بني آدم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام-؛ قوم شريرون وظالمون، وقد أفسدوا الحرث والنسل بالقتل وأخذ الأموال، فهل نجمع لك مالًا مقابل أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا قويًّا حتىٰ لا يتسربوا إلينا.

[٩٥] وكان ذو القرنين مع إيمانه وصلاحه حكيمًا؛ فقال لهم: ما أعطاني الله من القوة والمال والسلطان خير لي من المال، ولكن اعملوا معنا بقوة أيديكم، وسوف نقيم لكم ردمًا، وليس سدًّا؛ لأن السدّ يتحطم من الزلازل وعوامل التعرية، والردم يكون علىٰ شكل جبل يصل بين الجبلين لا يتأثر بالزلازل وعوامل التعرية، وهكذا يكون الإصلاح.

[٩٦] ثم طلب ذو القرنين منهم أن يعطوه قطع الحديد، كل قطعة كاللبنة المضروبة، وأخذ يصفّه ويرتفع ببنائه؛ حتىٰ إذا ساوىٰ بين الجبلين، قال للعمال: انفخوا علىٰ هذه الزبر وأججوا نارها حتىٰ تشتد وتذيب النحاس؛ فلمّا ذاب النحاس قال: أعطوني أفرغ عليه هذا النحاس المذاب؛ فأفرغه عليه، فاشتد واستحكم استحكامًا عظيمًا، وصار جبلًا عظيمًا سد الفراغ الذي بين الجبلين.

[٩٧] ثم بين سبحانه أن هذا الردم لشدّة إحكامه ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يرتقوا فوقه لارتفاعه الشديد وملاسته، وما استطاعوا أن يخرقوه أو يُحدثوا فيه ثقبًا، وذلك لإحكامه وقوته.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا
﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا
أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا
﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ
بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ
الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا
أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

[٩٨] ثم قال ذو القرنين: إن ما فعلته من بناء هذا السد ليكون حاجزًا ومانعًا من أذىٰ يأجوج ومأجوج هو رحمة من الله بالنّاس الذين طلبوا مني ذلك، وهذا لا شكّ من الخير ودفع الشر، ولكن كما أن لكل مخلوق نهاية فكذلك إذا جاء وعد الله وأمْرُهُ بخروج يأجوج ومأجوج فإنه سوف يجعل هذا السد دكًّا مستويًا بالأرض، ولا شكّ أن وعد الله حقّ لا ريب فيه.

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أنه ترك يأجوج ومأجوج مختلطين يموج بعضهم في بعض فإذا نُفخ في الصور جُمعت الجن والإنس كلها جمْعا للحساب والجزاء.

[١٠٠] ثم أخبر سبحانه أنه يوف يعرض جهنم يومئذ -أي: يوم القيامة- للكافرين الجاحدين عرضًا حقيقيًّا لتكون مأواهم، وليذوقوا عذابها جزاء ما قدمت أيديهم.

[١٠١] ثم بين سبحانه السبب جعلهم يذوقوا هذا العذاب الأليم فأخبر أنهم غطوا بصائرهم فلم ينظروا لآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، ولم يُطيقوا استماعًا للحق ولدعوة التوحيد.

[١٠٢] ثم قال سبحانه: وهل يظن الذين جحدوا بآياتي أن يتخذوا بعض عباد الله أولياء لهم يعبدونهم من دون الله؟! فلْيعلموا أن ذلك لا يكون جائزًا أبدًا، ولْيعلموا أن الله أعد وهيأ جهنم للجاحدين المشركين ضيافة وقِرًى لهم، فبئس ذلك النزل، وبئس من نزلوا فيه.

[١٠٣] وقل يا نبي الله منذرًا ومخوفًا الناس: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا يوم القيامة؟؛ فاعلموا أنهم هم الكفار الذين صادروا الدعوة وحاربوها، وهم كما ذكر الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]. وهكذا كل الضُّلال حتىٰ من الفرق الإسلامية. وهذا يُفسر قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، أي: كل من اختار الهدىٰ فهو اختياره، ومن اختار الضلال فهو اختياره، وحببنا لكل منهم ما اختار.

[١٠٤] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أن الأخسرين أعمالًا هم الذين بطل وضاع واضمحلَّ كل ما عملوه، وهم يظنون أنهم محسنون في أعمالهم، وهم في الحقيقة مسيؤون معاقَبون؛ لأنهم جحدوا بآيات الله كما في الآية التالية، نسأل الله السلامة والعافية.

[١٠٥] ثم بين أيضًا أنهم أولئك الذين جحدوا بآيات ربهم الدالة علىٰ وحدانيته، فحبطت وبطلت بذلك أعمالهم، فلا نعبأ بهم يوم القيامة، ولا نقيم لهم قدرًا، فإن أحدهم لا يزن عند الله جناح بعوضة.

[١٠٦] واعلم أنما كان جزاء أولئك الذين حبطت أعمالهم هو نار جهنم خالدين فيها؛ بسبب كفرهم برسل الله وجحودهم بآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، وعدم الانتفاع بها؛ بل واتخاذها للسخرية والاستهزاء.

[١٠٧] يخبر جل وعلا أن الفئة الرابحة والناجحة هم الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسله، وأتبعوا الإيمان بالعمل الصالح الذي توفرت فيه شروط قبول العمل، وهي: الإخلاص والمتابعة، ومن كانت هذه صفاتهم فقد أعد الله لهم جنات الفردوس التي حوت جميع أنواع النعيم، وهي أعلىٰ منازل الجنة وأوسطها، وهي أفضلها منزلًا.

[١٠٨] ثم بين سبحانه أنهم خالدين في هذه الجنات خلودًا أبديًّا، ولحسن المقام والمكان لا يريدون تحولًا ولا خروجًا منها، وهذه المنزلة في الجنة حصلوا عليها بأسباب قيامهم بالواجبات والأعمال الصالحة واتباع ما جاءتهم به رسل الله.

[١٠٩] يخبر جل وعلا عن عظمته وأن حِكَمَه وكلامه باقٍ ببقائه السرمدي الذي لا نهاية له، وأمر نبيه ﷺ بأن يقول: لو جعل البحر مدادًا، أي: حبرًا، للأقلام التي يكتب الله بها كلامه لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل، وحتىٰ لو جئنا بمثل البحر بحارًا أخرىٰ مددًا لهذه الأقلام؛ فإن كلام الله لا ينتهي أبدًا.

[١١٠] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ بأن يشرح للخلق مهمته وهي إثبات التوحيد ولوازمه وتبليغه، وإثبات أنه ﷺ بشر مثل سائر الرجال، وأنه لا يتميز إلا بإكرام الله له بالرسالة والخُلق الكريم الذي منحه الله، وأنه مكلف أن يخبر الخلق الثقلين الجن والإنس بأن إلهكم هو إله واحد لا شريك له؛ فمن رغب في النجاة والفوز برضا الله والجنة؛ فعليه أن يقوم بأمرين، هما: العمل الصالح الموافق لشرع الله، وأن لا يُشرك في العبادة مع الله أحدًا غيره.